

صورة الأنا والآخر في رواية "رماد الحياة" لحسونة المصباحي

The image of the ego and the other at The novel "Ashes of Life" by
Hassouna Al-Misbahiالأستاذ سنوسي شريط¹*

جامعة معسكر (الجزائر)

cherietsenouci@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2022 /04/17 - تاريخ القبول: 2022/06/19 - تاريخ النشر: 2022/06/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الانفتاح على تيمة الأنا والآخر في الخطاب الروائي المغاربي المعاصر، بغية رصد كيف عالج الروائي المغاربي علاقة الأنا بالآخر، وكيف استطاع أن يبرز صورة كل واحد منهما في نصه السردي. وللإجابة عن هذه الإشكالية المحورية اخترنا رواية الكاتب التونسي حسونة المصباحي "رماد الحياة" لتكون نموذجاً تطبيقياً.

الكلمات المفتاحية: الأنا- الآخر- السرد- النص- الذات- الكتابة.

Abstract:

This study aims to open up the theme of the ego and the other in the contemporary Maghreb novelist discourse, in order to monitor how the Maghreb novelist treated the relationship of the ego to the other, and how he was able to highlight the image of each of them in his narrative text. In order to answer this central problem, we chose the novel of the Tunisian writer Hassouna Al-Misbahi, "Ashes of Life" as an applied model.

Keywords: ego-other-narration-text-self-writing

*1 المرسل: سنوسي شريط

1 - مقدمة :

يعتبر حسونة المصباحي أحد عمالقة الرواية في تونس، رغم محدودية التراكم الروائي الذي أنتجه، فقد كتب عدداً محدوداً من الروايات والمجموعات القصصية (حوالي 10 روايات، و 03 مجموعات قصصية). ولكن رغم ذلك، فهو يقف إلى جانب محمود المسعدي، وعلي الدوعاجي، والبشير خريّف، ومصطفى الفارسي، ومصطفى المدائني، وإبراهيم درغوئي، ومحمد الباردي، وصلاح الدين بوجاه، والحبيب السالمي... كأحد أبرز المبدعين الذين ساهموا في تجديد الكتابة السردية الروائية في تونس، سواء على مستوى التشكيل السردية، من خلال النزوع نحو تجريب أساليب وطرائق سردية جديدة، أو من حيث التيمات والموضوعات التي آثر معالجتها ضمن أعماله الروائية، خاصة ما تعلق بالحياة الاجتماعية التونسية.

وما يميّز تجربة هذا الكاتب هو أنه شيّد مساراً جديداً في الرواية التونسية، يقوم بالأساس على الاستفادة من تجاربه الشخصية المرتبطة بحياته الخاصة، حيث نجد مجمل أعماله الروائية التي كتبها على غرار: هلوسات ترشيش (1995)، والآخرون (1998)، ووداعا روزالي (2001)، ونوارة السدفي (2004)، وحكاية تونسية (2008)، ورماد الحياة (2009)، وبيتم الدهر (2012)، وأشواك وياسمين (2015)، وبجثاً عن السعادة: رحلتي مع الكتب (2017)، ولا نسبح في النهر مرتين (2020). ينزع نحو ذاته لجعلها مرجعاً أساسياً لتشكيل رواية تغوص في أعماق المجتمع التونسي لاستكناه هموم أفرادها وفتاته ومشاكلهم وأمالهم وطموحاتهم، وطرح تصوراتهم لأهم القضايا التي تشغل بال الفرد التونسي.

تعدّ تجربة حسونة المصباحي تجربة فريدة في الإبداع، فهي تمتزج بألم حب الوطن والخوف عليه من المجهول، وبمرارة المنفى، التي دامت 25 سنة في ألمانيا، وفيها كتب أغلبية نصوصه القصصية والروائية. وهذا ما يجعل الكتابة الإبداعية عنده تأخذ بعداً مغايراً، بخلاف ما نجده عند كتّاب آخرين، سواء في تونس أو في مختلف الأقطار العربية والمغربية.

وعلى هذا الأساس، تشكّل دراسة وتحليل المنجز السردية لحسونة المصباحي في حدّ ذاته خاصية جوهرية في الانفتاح على الرواية المغربية لرصد علاقة الأنا بالآخر. ففي رواية (رماد الحياة) وما تحمله من مواقف اتجاه الأنا، ثم الهجرة نحو بلد الآخر في رصد مواقفه وحياته وسلوكاته، ومقارنتها بمواقف وحيات الأنا. تتراءى لنا إشكالية مواجهة الأنا للآخر لها منظور مغاير للمواجهة الاعتيادية التي عالجتها روايات عربية عديدة. يقول الناقد صدوق نور الدين: "ولكأن الصورة في الرواية العربية اليوم معكوسة. فإذا كان المثقف في السابق يهاجر ليفيد ذاتياً، فكراً

ومعرفة، ثم يعود ليرسخ فكر مواجهة أوروبا الغازية، وهو من صميم التفكير في بناء دولة ذات هوية قومية فاعلة، فإن المثقف في الراهن نزع إلى اختيار آخر يتجسد في التخلي عن كل ما له علاقة بالوطن، بالذاكرة والهوية. لقد اختار موته هنالك" (صدوق، ن، 2006: 55).

إنّ الآخر (الغرب) في هذه الرواية يعتبر منفى للأنا الهاربة من اضطهاد وتعسف حكامها، "ومن القمع السياسي، والضيق الاقتصادي" (منيف، ع، 2007: 82). على حدّ تعبير الروائي عبد الرحمن منيف. ومن ثم فإن اختيار الغرب مكاناً لخيبات وانكسارات الأنا من طرف الروائي حسونة المصباحي تعدّ تجربة جديدة تستحق الدراسة والتحليل والتأمل.

2. رواية "رماد الحياة" وبواعث الكتابة عن الذات:

تبرز شخصية الكاتب حسونة المصباحي بوصفها الذات الجوهرية التي تدور حولها أحداث الرواية، فشخصية "ياسين" تعتبر معادلاً ذاتياً لشخصية الكاتب بمواجسها وطموحاتها وأفكارها وحياتها. رغم أن الروائي لم يصرح بذلك في روايته، ورغم أنه اعتمد ضمير الغائب بدل ضمير المتكلم، وهذا من أجل إبعاد حضور ذات الكاتب وسيرته الذاتية بطريقة مباشرة، مثلما جاءت في الكثير من الروايات العربية، مثل: (حياتي) لأحمد أمين، و(الخبز الحافي) لمحمد شكري، و(الصريح) لعبد الغني أبو العزم، و(الرجوع إلى الطفولة) لليلى أبو زيد، و(جنّة) لمحمد الباردي،... وغيرها من الروايات التي تتخذ من السير الذاتية مادة روائية لمضامينها.

وعليه، فإن الروايات التي تنزاح عن السيرة الذاتية، وتجنح نحو التخييل الذاتي لا تتخذه إطاراً لتشكيل أحداث روائية متخيّلة نجد فيها "الذات تفرض وجودها في الداخل الروائي عنوة على كاتبها مهما بذل الجهد ما وسعه في إخفائها وحجبها، وهذا يعني أن قدر الممارسة الإبداعية أن تنسرب الذات في داخل العمل الإبداعي وتطعمه بمناخات الذاتي وما تعنيه الذاتية من إرادة وعاطفة وقيم وطقوس وجرأة على الانفلات من جحيم لحظة الكتابة بالتلاشي في الحميم والخاص" (عثمان، أ، 2012: 203). فالروائي لا يستطيع الهروب من حضور ذاته ضمن المتن الروائي، فهو بطريقة غير مباشرة يسرد تجربته الشخصية. يقول الناقد فرنسوا مورياك: "لا أعتقد أن ثمة أي أثر روائي لم يكن في أصله حياة ذاتية أخذت طابعاً روائياً" (آيت ميهوب، م، 2016: 48).

إضافة إلى ذلك، فإن الناقد صالح معيض الغامدي يذهب بعيداً في هذه القضية، إذ يرى أن "الكاتب يستخدم الشكل الروائي قناعاً لكتابة سيرته الذاتية، لأسباب كثيرة تتعلق كثير منها بالرغبة في الهروب من الرقابة بكل أنواعها الذاتية والأسرية والاجتماعية والسياسية... إلخ" (الغامدي، ص، 2013: 146).

ومن خلال تلقي أحداث الرواية وتتبع مسيرة شخصية "ياسين" في رواية "رماد الحياة"، ندرك أن الرواية تستعرض (حياة=سيرة حسونة المصباحي) بشكل واضح دون شك. وهو أيضاً ما طرحه في روايته السابقة "الآخرون"، لذلك قلت سابقاً أن حسونة المصباحي يعتمد في أعماله على ذاته كمكوّن أساسي لمادة ومضامين رواياته. وهذا ما صرّح به الكاتب نفسه، إذ قال: "وعليّ أن أشير أيضاً إلى أنني تعلّمت الكثير من أعمال هنري ميللر، منها بالخصوص أنني تحررت من الأنماط السائدة لأبدع أعمالاً انطلافاً من تجربتي الخاصة. وهذا ما حدث مع "هلوسات ترشيش"، ومع "الآخرون"، ومع "وداعاً روزالي"، ومع أعمال أخرى، آخرها "بحثاً عن السعادة" التي أروي فيها فصولاً من حياتي مع الكتب" (المصباحي، ح، 2017) فهذا اعتراف واضح وجلي من المؤلف بشراء تجربته الشخصية التي ساهمت في إغناء تجربته الإبداعية.

وفي السياق ذاته، نجد الروائي والناقد أحمد المدني يستنتج هذه الخاصية التي امتاز بها حسونة المصباحي، حيث يقول: "لا يحتاج القارئ إلى كبير عناء ليعرف، بل وييقن أن ضمير الغائب في رواية حسونة المصباحي "رماد الحياة"..... هي بمثابة تحويل متعمد لضمير متكلم يريد من هذا المسلك المحوي أن يحقق مسبقاً هدفين متضامين، تحدوه ضمنهما حاسة فنية يقظة: الهدف الأول، إبعاد "شبهة" الذاتية عن محكيه، ليشمل آخر، ولا ضمير إن تماثل مع ذاته في آن، بعد ذلك. الهدف الثاني، سليل الأول، رغبة تحقيق الموضوعية المطلوبة لجنس الرواية، التي مهما حفلت أو تخللتها التعبيرية، والأطيف الشعرية، والصور المجازية عموماً، تبقى بنسق التباعد والعقلنة ألصق، وهو المنسجم حقاً معها. إن استخدام ضمير المتكلم من لدن أي روائي، فضلاً عن كونه يقوم بوظيفة السارد، يوحي بأن صاحبه يحمل على عاتقه - قد يحمل - مهمة ورغبة سرد محكيّ شخصيّ يهيمه هو بالذات، من قبيل أن يكتب سيرته الذاتية، ومعلوم أن هذا الضمير غالب في هذا النوع من الكتابة وإن أمكنه أداء وظائف أخرى، والتكيف مع الخطاب الذي يضعه المؤلف على لسانه" (المدني، أ، 2012: 121).

انطلافاً من هذا المعطى الفني والجمالي لخصوصية هذه الرواية، وانطلاقاً من متنها السردي الذي نحا نحو تتبع مغامرة/رحلة "ياسين" الذي قرّر السفر إلى ميونيخ (ألمانيا)، هروباً من الواقع التونسي المتأزم على المستوى السياسي

والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وهروباً أيضاً من المضايقات التي تلقاها من بعض المسؤولين وبعض الأشخاص، إضافة إلى أسباب موضوعية وذاتية أخرى.

فإن الصورة السردية الروائية الوهمية (يتقاطع فيها التخييل مع الواقع) بالنسبة للقارئ والتي شكّلها الروائي، بغية كتابة رواية إبداعية تجسّد رحلة الشخصية من تونس نحو ألمانيا. تعكس في حقيقة الأمر حياة الروائي نفسه، الذي حاول أن يرصد تجربته مع المنفى، حيث تروم الرواية إبراز عذابات وآلام البطل "ياسين"، الذي فضّل الهجرة نحو أوروبا على البقاء في كنف المضايقات والضغطات الكثيرة التي كان يتلقاها في بلده (تونس). لذا نجد الكاتب في هذا النص يركّز على المنفى باعتباره "رحيلاً في الجغرافيا والزمن وذاكرة الذات والمحيط، وعيش على إيقاع الخوف والفقدان، ومجازة للظاهر الذي أفتته العين، واستوطن خلايا الذهن، إلى البعيد الغامض والموحش" (ماجدولين، ش، 2012: 113). هذا من جهة، ومن جهة ثانية نجد يرصد تجربته مع لغته الأم (من خلال فعل الكتابة الإبداعية) في غربته التي دامت 25 سنة، حيث تقف شخصية "ياسين" على محك الحياة وهي تتابع خطواتها من مكان إلى آخر. هاربة من حراس الليل وزبانية النظام الحاكم التي كانت ترصد حركاته وسلوكاته ومواقفه وكتابات. ليقترّر في النهاية ترك الوطن والسفر نحو أوروبا لاستحالة البقاء في بوتقة هذه الوضعية المزرية.

ومن ثم، فإن بواعث كتابة هذه الرواية، هي بواعث ذاتية، أي تنطلق من الكتابة عن الذات في رحلتها مع الألم والمعاناة والخيبات والضربات التي تلقفتها عبر مسيرتها الحياتية. هذا ما يؤكده محمد الباردي في قوله: "... في حين يسعى حسونة المصباحي إلى موضعة الذاتي، عندما يخضع وقائع شخصية وعلاقات ذاتية يمكن أن تكون من باب المذكرات الشخصية، إلى صلاصة البناء الروائي" (الباردي، م، 2011: 30). إنه يدمج ما هو شخصي متعلّق بالذاتي ضمن الإطار العام للرواية بمعاييرها الفنية، للحدّ من تجربته الشخصية في الحياة عبر القالب الروائي.

فنحن نعلم أن حسونة المصباحي كان أستاذاً للغة الفرنسية، وتمّ فصله لأسباب سياسية من العمل، ليعيش بعد ذلك تجربة السجن والتشرد والقهر والإذلال. "فقرر السفر بعيداً في رحلة قادته إلى كثير من العواصم ولا مستقر غير المدينة البافارية "ميونيخ" التي قضى فيها 25 عاماً من الإبداع والتلوج والتجارب المختلفة" (جبيل، س، 2016: 95-96). يقول حسونة المصباحي عن هذه التجربة المريرة: "طبعاً لا بد لي من الاعتراف بأن السنوات الصعبة التي عشتها بعد أن فصلت من عملي كمدرس للغة الفرنسية، وذلك عام 1976، هي التي كانت حاسمة في إقرارتي بوجود ترك الوطن إلى مكان آخر. ففي خلال تلك السنوات الأربع من البطالة، عرفت التشرد والقهر والإذلال في أبشع معانيها. وبما أنني كنت ممنوعاً من السفر، فإني ظللت أترقب فرصة استعادة جوازي كتقرب

السجين لساعة الخلاص. وما أن تمّ لي ذلك، حتى أسرعرت إلى أول وكالة للأسفار لاقتناء تذكرة طائرة إلى باريس. لكن يبدو لي أن هناك أسباباً أخرى أعمق من تلك التي ذكرت. وهذه الأسباب تتصل بالواقع الثقافي واللغوي، والذي كان سائداً آنذاك في بلدي" (المصباحي، ح، 2003: 419).

وبالتالي، ففي هذه الرواية تتقاطع السيرة الذاتية للكاتب مع الرواية، لتشكل تخيلاً ذاتياً "ينزع نحو مزج أحداث ومواقف وحقائق واقعية وتخييل أحداث وشخصيات ومواقف وأمكنة وأزمنة أخرى" (شريط، س، 2017: 52)، وتحضر فيه الذات بكل تجلياتها لتستحضر يوميات ياسين (=الكاتب) في بلده، لتحكي قصته مع الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي عرفتها تونس في مرحلة من مراحلها التاريخية، أي خلال السبعينيات من القرن الماضي. جعلته بعد ذلك يقترّر مغادرة البلد والسفر نحو باريس، ثم ميونيخ ليستقر بها مؤقتاً، ويبدأ صفحة جديدة في بلاد الآخر ويتعرّف على واقعه، وظروفه ومظاهره المختلفة، ويتزوج بعد ذلك من الفتاة "ماريان". ولكن هذا الزواج لم يُكتب له الاستمرار فطلق زوجته، ليعيش بعد ذلك القلق وعدم الاستقرار والخوف من المجهول، وفقدان اللغة (لغته الأصلية=العربية). ليقترّر بعد ذلك العودة مجدداً إلى بلده تونس.

وعليه، فإن ثنائية الأنا والآخر في هذه الرواية تأخذ بعداً مغايراً لما كان مع الروايات السابقة (روايات التأسيس)، حيث أن الإشكالية التي يعالجها الكاتب في روايته علاقة الأنا مع الأنا (السلطة الحاكمة في تونس، والنخبة المثقفة)، من جهة، ومع الآخر (الأوروبي) بوصفه منفى اختيارياً من جهة ثانية. فعلاقة "ياسين" بمحيطه لم تكن علاقة ودية، بل علاقة توتر واختلاف وتضاد وصراع، اتسمت بالقلق والخوف والاضطراب والخوف من المجهول (مستقبل البلاد) الذي قد يؤدي بالوطن إلى ما لا يحمد عقباه، نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي مرّت بها تونس بسبب نظام الحكم الذي أحكم قبضته على الشعب بيد من حديد، وقام بقمع كل الحريات، ومتابعة الكتاب والمبدعين والسياسيين الذين يخالفونه الرأي والمواقف.

هذا إضافة إلى الظروف الاجتماعية التي عانى منها البطل، فقد عانى الفقر والجوع واليتم في صغره. وعانى القهر والتشرد والاضطهاد في شبابه. بالإضافة إلى المضايقات والمتابعات التي طاردته من قبيل ما يسمّى بالنخبة المثقفة (القريبة من السلطة) باعتباره كاتباً صحفياً وروائياً (وهنا كذلك إشارة إلى تقارب البطل مع شخصية الكاتب)، حيث حاصره الكثير ممن يُدعَوْنَ بالمتقفين التابعين للسلطة الحاكمة، بتلفيق التهم ضده. فهذه العوائق والمشطبات هي التي دفعت البطل "ياسين" إلى اتخاذ قرار الهجرة نحو أوروبا. فقد سافر في البداية إلى باريس (فرنسا)،

ثم إلى ميونيخ (ألمانيا) ليستقر بها مدة مؤقتة، علّه يشفى من هذه الجراح التي آلمته كثيراً، ويبدأ صفحة جديدة في مكان وعالم آخر مغاير لعالمه السابق.

2/ عتبة العنوان:

يشكّل العنوان بنية دلالية هامة في الخطاب النقدي الحدائي بوصفه يتيح للناقد الفرصة لاستكناه مقاصد العمل الروائي وغاياته المعرفية، إضافة إلى ذلك فإن العنوان يعدّ "نصاً موازياً" *paratexte* يندرج ضمن النص المحيط ("الحجري، إ، 2014: 22)، والذي من خلاله نستطيع الانفتاح على النص لاستقراء ملامح الموضوعة التي يريد التطرق إليها. وإلى جانب ذلك، يعتبر العنوان أولى العتبات الرئيسة التي يلجها القارئ/الناقد بغية مباشرة فعل القراءة بوعي وتركيز حاد لاستبطان أغوار النص ومعرفة مقاصده. "إنه مدخل إلى عمارة النص، وإضاءة بارعة وغامضة لأبعائه وممراته المتشابكة..." (حمداوي، ج، 2013: 56).

على هذا الأساس، نجد أن رواية حسونة المصباحي (رماد الحياة) حملت عنواناً واضحاً في تركيبته الدلالية، فهو يحيل على معنى الأسى والحزن والألم، إنه يرمز إلى الذكريات الأليمة التي مرّ/يمرّ بها الإنسان في حياته. فجملة "رماد الحياة" تحمل معنى مرتبطاً بشخصية البطل "ياسين" الذي تكفّل السارد بسرد حكايته من مدينة القيروان (تونس) إلى مدينة ميونيخ (ألمانيا)، ثم رجوعه إلى مدينة الحمامات (تونس). فهذه الرحلة التي حملت ذكريات عديدة متعلّقة بالأحداث والمواقف التي واجهت البطل، غدت بعد ذلك رماداً بعدما التهمت النيران مع مرور الأيام، وهي انعكاس لحياة الكاتب نفسه. فلم يبق من هذه الحياة سوى الرماد.

وقد جاء العنوان في صورة الغلاف في أعلى الصفحة بعد اسم المؤلف، مكتوباً باللون الأحمر، هذا اللون له دلالة واضحة أيضاً، فهو يحيل على الحزن والأسى. فجاء العنوان للدلالة على الحياة التي مرّ بها البطل = الكاتب. كما نجد أن جملة العنوان وردت في متن الرواية مرتين:

المرّة الأولى: عندما قال له صديقه "يوسف":

"-واحتي الصغيرة هذه نأث بي يا صديقي عن العلاقات المسمومة التي يمكن أن تنسف عالمك الداخلي، وتجعلك تعيش على سطح الحياة، غارقاً في تفاهاتها، ومشاكلها... وأنا أنصحك أن تبتعد عن العاصمة قدر الإمكان إذا ما أردت إحياء روحك التي ربما أذبلتها سنوات الغربة الطويلة.... اذهب بعيداً... واجتث في رماد

حياتك عن الجمرات التي يمكن أن تلهب خيالك مجدداً، وتعيد إليك اللغة الهاربة منك، والمستعصية عليك !
" (المصباحي، ح، 2009: 86).

والمرّة الثانية: عندما كان السارد يتساءل عن حالة "ياسين" بعد عودته من الغربة:

"هل بإمكانه أن يقوم هو أيضاً بالرحلة العكسية التي تعيده إلى الكتابة، وبها يستعيد توازنه النفسي، والروحي؟... صديقه يوسف نصحه بأن يبحث في رماد الحياة عن الجمرات التي يمكن أن تلهب خياله مجدداً... فهل يكون هذا البحث الرحلة العكسية التي يطمح إليها؟..." (المصباحي، ح، 2009: 86).

وبالتالي، فإن عنوان الرواية يعدّ مفتاح النص، حيث من خلاله تتبيّن خصوصية هذه الرواية بوصفها تروم الانفتاح على سيرة بطلها "ياسين" في رحلته من وطنه نحو منفاه الاختياري، إنها رواية البحث عن الذات في رماد الحياة.

3/البطل "ياسين" في بلاد الغربة:

غادر البطل "ياسين" وطنه تونس متوجهاً نحو باريس (فرنسا) في بداية رحلته، لكنها لم ترق إليه كمكان قار يبدأ فيها صفحة جديدة، نظراً لوجود جالية عربية بتعداد كبير، ليتجه بعد ذلك نحو مدينة ميونيخ (ألمانيا) التي عشقها عشقاً مثالياً، فاستقر بها، واتخذها منفى اختيارياً، هروباً من جحيم العذاب، وموطناً للتححرر من قيود الماضي الكئيب، وتعزّف فيها على الفتاة "ماريان" التي تزوجها فيما بعد، بعد أن التقى بها في بار (الأونسوفايثا). ومن ثم، بدأ مرحلة جديدة في عالم جديد، عالم يمثله "الآخر" المختلف تفكيراً وثقافة ولغة ومعتقدات.

لكن رغم زواجه من "ماريان" إلا أنه لم يكن سعيداً في حياته، بل كان مضطرباً وقلقاً وخائفاً من المجهول، لذلك نجده يسافر كثيراً إلى مدن أوروبية، بدءاً من مدينة (برلين) حيث يقطن صديقه "مروان" الذي سافر هو الآخر إلى هذا البلد هارباً من أوضاعه الاجتماعية الصعبة، ثم سافر إلى الأندلس (اسبانيا) للاقتراب من الحضارة العربية في عز مجدها من خلال الرجوع عبر ذاكرته لاسترجاع هذا المجد، ثم ذهب إلى فيينا (النمسا)، ثم عاد إلى ميونيخ (ألمانيا). وهذا ما يدلّ على قلقه وعدم استقراره في غربته، وهو الذي جاء إلى أوروبا حاملاً بغدٍ أفضل، ومستقبلٍ زاهر، شأنه شأن بقية أصدقائه: "مروان" و"يوسف" و"سليم"، وكلّ الشباب العربي الحالم بعالم سحري مختلف عن عالمه المتخلّف. يقول السارد:

"لسنوات ظن أنه ضَمَنَ لنفسه نَحائياً الطمأنينة والاستقرار اللذين طالما تَمَتَّها في حياته المضطربة المتقلبة، غير أن هذا لم يكن غير مجرد وهم. وها كلّ شيء يتداعى ويوشك على الانهيار مثل سقف الشقة في الكابوس المرعب"
(المصباحي، ح، 2009: 86).

فمشكلة "ياسين" كانت نفسية ومعنوية بالدرجة الأولى، فقد كان يعاني أزمة نفسية بسبب ظروفه الاجتماعية، وظروف البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. لقد كان يحلم بحياة أفضل في بلده، حياة سعيدة تحمل طموحات أفرادها في العيش في سعادة وهناء، حياة مريحة تكفل حقوق وواجبات فئاتها. حياة توفّر حق الإبداع وحق الكلمة، باعتبارها أساس الديمقراطية. ف"ياسين" كان كاتباً وروائياً له مشاريع إبداعات عديدة، ومشاريع ثقافية كثيرة، لكن في خضم المستجدات التي طرأت مع مرور الزمن، والمتعلّقة بسياسات السلطة الحاكمة، والمضايقات التي مسّت أغلبية أفراد المجتمع بما في ذلك السياسيين والكُتاب والمبدعين. جعلت "ياسين" يدخل في أزمة نفسية حادة لم يستطع الخروج منها إلا بالتفكير في الهجرة نحو الغرب تحديداً. باعتباره فضاء يحقّق له هذه الطموحات وهذه المشاريع.

أما المشكلة الثانية التي كان يعاني منها "ياسين" في الغربة، هي خوفه من فقدان لغته الأصلية (العربية) لصالح لغة وطن المنفى (الألمانية). فلكونه كاتباً، كان يواجه صعوبات عديدة من محاولة فقدانه للغة التي يكتب بها. لذلك كان في صراع كبير في غربته، يكابد هذا القلق.

أما بالنسبة لموقفه من "الآخر" بعدما اختار السفر إليه طواعية، فقد كان يحمل مواقف متباينة، ففي البداية كان ينظر إلى الغرب بذلك العالم الوحشي، العالم المخيف، العالم الذي لا يرحم، وهو موقف شامل لكل العرب، باعتبار أن الغرب استعمر أغلبية البلدان العربية، ممّا شكّل عقدة لدى الشعوب العربية، فهي تنظر إلى "الآخر" بنظرة استعمارية. وقد تحدّث السارد عن تفكير ورأي "ياسين" في الغرب، حيث قال:

"وهو يتذكر أنه فكّر وهو في القطار الذي حمله إليها من باريس في ليلة دافئة، أنه ذاهب إلى قلب الغرب الحقيقي، وأن كل ما كان قد زاره حتى ذلك الحين، بما في ذلك بلاد اسكندنافيا البلورية، هو الحواشي الأطراف. كما فكّر بأن الغرب كثيف الظلمة والذي طالما أربع أهل الشرق حتى أنهم جعلوه في لغتهم مرادفاً للوحشة والمنفى في أقصى درجاته، متجسد في البلد الذي هو ذاهب إليه أكثر من كل البلدان التي وطّقتها قدماءه حتى ذلك الحين. والقليل القليل من أهل الشرق الذين اقتربوا من هذا الغرب الموحش المعتم، فرّوا هارين كما لو أنهم أطلّوا على ليل بلا نهاية. لذا فإن الحنين إلى ضوء الشرق في قلب الغرب، غالباً ما يكون طاغياً، و نارياً. و نيتشه الذي قاوم العتمة الجرمانية بشدة، مولّداً الضوء من الكلمات والأفكار، انهزم في النهاية، وأطبق عليه ليل الجنون..." (المصباحي، ح، 2009: 31-32).

فقد كان "ياسين" يتذكر كلّ الحكايات التي قيلت عن الألمان، وهو الآن ذاهب إليه لاكتشافه من جديد. والذي سيصبح منفاه الاختياري، مفضلاً إياه على العديد من المدن الأوروبية باريس، لندن، روما... وفي ألمانيا سيتعرّف على العديد من الفتيات وسيتزوج بواحدة منهن (ماريان). وهذه دلالة على تزواج الأنا مع الآخر، والاقتراب من بعضهما البعض، فحب الأنا للآخر من خلال علاقة "ياسين" ب"ماريان"، وحب الآخر للأنا. يدلّ على العلاقة الوطيدة والحميمة التي تشكّلت بينما. ولكن عقلية "ياسين" المضطربة وغير المستقرة جعلت "ماريان" تطلب الانفصال من "ياسين" وتدعوه للعودة إلى بلده:

"اسمع يا ياسين... أنت تعلم أنني أحببتك كثيراً... لكن... صمتت.

-لكن ماذا؟

-لكن أنت مغامر... دائماً أنت على استعداد للمغامرة حتى بحياتك من أجل الكتابة... أما أنا (صمتت...): ثم:

-أنا أخاف... لا أحب المجازفة... أريد حياة مستقرة... أريد أطفالاً... وأنت لا تقبل هذا...

-فليكن... لكن الانفصال كان مفاجئاً وصاعقاً... وأنا الآن أتألم وأتعذب كثيراً...

.....

-عد إلى بلادك !

-سأفكر في الأمر... (المصباحي، ح، 2009: 68).

من خلال هذا الحوار نستنتج أن علاقة الأنا بالآخر وصلت إلى النهاية، ولا يمكن الاستمرار بهذه الطريقة وهذا المستوى الفكري والعلائقي (العلاقة) بينهما. لقد أرادت "ماريان" وضع حد لهذا الزواج والتقارب مع "ياسين". لذلك فضّلت الطلاق من "ياسين"، وطلبت منه الرجوع إلى بلاده أفضل من بقاءه في ألمانيا، خوفاً عليه من هذا القلق والحزن والخوف الذي ظلّ يعكّر صفو حياته.

4/ صورة تونس في مرآة "الأنا" و"الآخر":

تتخذ صورة تونس نمطين في التفكير والرؤية لدى شخصيات الرواية، سواء ما تعلّق بالشخصيات العربية (التونسية) على غرار: "ياسين"، "مروان"، "يوسف"، "سليم"، "عمران"، أو ما تعلّق بالشخصيات الأوروبية على غرار: "ماريان"، "باولا"، "كريستا".

4-1/ النمط الأول: الشخصيات العربية (التونسية): كانت نظرهم سلبية إلى تونس، حيث ترصد لنا الرواية

مواقف شخصيات عديدة عانت كثيراً من أبناء جلدتها، سواء كانوا مسؤولين أو أفراد. لذلك كان بالنسبة إليهم

الحل الأمثل هو مغادرة البلاد نحو أوروبا. ف"ياسين" كان الشخصية الأكثر تأثراً بهذه المعاناة بوصفه إنساناً ومواطناً تونسياً أولاً، و كاتباً صحفياً وروائياً ثانياً. لقد كان شاباً طموحاً يحلم بحياة سعيدة في بلده ويحلم بتحقيق مشاريعه الثقافية والإبداعية. لكنه اصطدم بواقع مر لا يؤمن بالحرية ولا بالإبداع إلا بما يخدم سياسة السلطة وتوجهاتها. لذلك اضطر في النهاية إلى الهجرة نحو الغرب، حيث الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

لقد كان في منفاه يحمل جرحاً أليماً، نظراً لما آل إليه الوضع في تونس والعالم العربي بشكل عام. لذلك نجده يزور الأندلس من أجل تذكر تلك الحضارة العربية التي أبانت عن الازدهار والتطور والمكانة التي وصل إليها العرب. وهذا قصد التنفيس من جهة، ومن جهة أخرى مداواة نفسه من هذه الخيبات والانكسارات التي لاحقته في بلده من جهة أخرى. لذلك عندما التقته الفتاة "باولا" في الأندلس انتقد صراحة الواقع العربي، ولم يبد إعجابه واعتزازه بحضارة الأندلس. وهذا طبعاً بسبب واقع الأمة العربية وحاضرها المتعس:

"آ... كان عليّ أن أتعلم العربية! قالت. وبعد أن شربت قليلاً من كأس النبيذ الأحمر، أضافت: أكيد أنك تشعر بالفخر أمام ما خلّفه العرب في الأندلس من كنوز معمارية..."

-لا...أبدأ!

تراجعت باولا بمجدعها إلى الوراء، وقالت بدهشة واضحة:

-ولماذا؟

-لأن حاضر العرب الشقي جعل ماضيهم بلا معنى بالنسبة إليّ!...

-هذا إحساس غريب!

-اسمعي يا سيدتي، من حق الأمم المنتصرة أن تفخر بماضيها...أما الأمم المهزومة كأمة العرب...فالفخر بالماضي أفيون لا يسكن الجراح إلا قليلاً...بل قد يعيب الوعي تماماً..."

عادت البرودة الشمالية إلى عيني باولا. ظلّت صامته لحين، ثم قالت:

-هذه أول مرة، أسمع فيها عربياً يرفض ماضيه بمثل هذه الحدة!

-المدركون للحقائق المرة دائماً نادرون يا سيدتي..."

نظرت في عينيه وكأنها ترغب في أن تستجلي سراً ما بأسرع ما يمكن ثم قالت:

-لا بد أن يكون هناك سبب لهذه المرارة.

-هناك أسباب كثيرة لكن لا مجال لذكرها الآن!"(المصباحي، ح، 2009: 27-28).

إنّ "ياسين" يحمل مرارة على خلفية الأوضاع التي تعيشها مجمل البلدان العربية، ومنها تونس على وجه التحديد، ومن ثم كان البطل يُكّن حقدًا للقائمين على نظام الحكم الذين بسببهم تخلّفت تونس عن ركب الأمم المتحضرة. كما انتقد أيضاً النخب المثقفة التي تدّعي الثقافة والفكر، فهي في نظره تحمل فكراً متحجراً، فكراً استقصائياً. إنَّها تقف في وجه التطور والتقدم الفكري والمعرفي، حيث تقف بالمرصاد ضد كلّ المشاريع الفنية والثقافية للشباب التونسي. وهذا ما وقع للبطل نفسه مع مجموعة من النقاد المحسوبين على السلطة الحاكمة، حيث وقفت ضده، ولقّقت له العديد من التهم والأكاذيب، وقد وصل بهم الأمر أن اتهموه بالجوسسة لصالح إسرائيل. يقول السارد: "فحالما خطا الخطوات الأولى في "باب البحر" برز أمامه مثل الذئب المتعطشة للدم، أولئك الذين ناصبوه العداوة منذ أن نشر نصوصه الأولى، وحاربوه، وهو في الغربة، وضده حاكوا المؤامرات والدسائس القذرة، وعنه أشاعوا الأكاذيب المغرضة، ولا دافع لهم إلا لأنه خرج عنهم، وأبى الانصياع لأساليبهم في التفكير وفي الحياة. ففي بلاد الشرق يجزّم كلّ من يخرج عن القطيع، ويفرض الرضوخ لقوانين المجموعات الصغيرة أو الكبيرة. وفي بلاده دفع الثمن غالباً كلّ الذين لم يكونوا مخلصين إلا للكلمة الجميلة التي يجترحونها من عذابتهم ومن آلامهم، وهم في وحدتهم اللامتناهية" (المصباحي، ح، 2009: 72-73).

كما نجد أيضاً "مروان" و"يوسف" و"سليم" و"عمران" يحملون التفكير نفسه الذي يحمله "ياسين"، فهم كذلك عانوا من الظروف والأوضاع ذاتها التي عانها "ياسين"، وكانت الدوافع نفسها التي دفعتهم لتترك الوطن والهجرة نحو الغرب. فهذا صديقه "يوسف" الشاعر يقول له:

"هنا في بلاد الشرق، ليس الحكام هم وحدهم الذين يجرموننا من الحرية، ومن الحياة ولذاتها، وإنما الشعوب أيضاً. فبعد عهود طويلة أشبعت خلالها ضرباً بسيطاؤ الذل والمهانة والظلم، تخلّقت هذه الشعوب بأخلاق حكامها. وهكذا أصبح العبيد نسخة طبق الأصل من أسيادهم..." (المصباحي، ح، 2009: 36).

ومن ثم، كانت صورة تونس لدى أبنائها صورة سلبية، تروم أن أغلبيتهم يرفضون الأوضاع التي مرّت بها تونس، سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي. بل نجد أن هذه الأوضاع والظروف هي التي دفعت بهم إلى الهجرة والسفر نحو بلاد الآخر للعيش في فضائه. ولو أن في النهاية عادوا كلّهم بخفي حنين، حيث أنهم لم يجدوا ما حلموا به هناك. بما في ذلك البطل "ياسين"، فآثروا الرجوع إلى أحضان الوطن. يقول الناقد فوزي الزمرلي: "وهكذا انتهت مسيرة الشخصيات إلى طورها الأخير نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية ونفسانية، كاشفة عن أزمة هؤلاء (...). الذين اضطرتهم ظروف وطنهم أن يدوروا دورة مفرغة. فقد هاجروا توقفاً إلى العلم والحرية أو

الحرية والمال فبرّحت بهم الغربية وتسلمت عليهم قوى الاستغلال والقهر فرجعوا إلى موطنهم "الزمري، ف، 2011: 131).

4-2/ النمط الثاني: الشخصيات الغربية (الألمانية): كانت نظرتهم إيجابية لتونس ولعظم البلدان العربية:

أ/الفتاة "ماريان": كانت متأثرة بثقافة وحضارة الشرق، حتى أنها قبلت الزواج مباشرة ب"ياسين" عندما عرض عليها فكرة الزواج، وقد زارت تونس بعد ستة أشهر من زواجهما، فأعجبت بهذا البلد كثيراً، بعدما تعرّفت على عاداته وتقاليده، وعلى أفراد عائلة "ياسين". كما زارت مدينة الحمامات، هذا المكان الرائع بمناظره الخلابة وشواطئه الرائعة، إنه السحر الشرقي بالنسبة للإنسان الغربي الذي يكتشف معالم الشرق. وقد كانت تحلم بزيارة الصحراء باعتبارها مكاناً يخفي أسرار المجتمع التونسي، ويجسّد معالم الإنسان البدوي التونسي. لكن انفصالها عن "ياسين" أزاح هذه الفكرة عن "ماريان". لقد كانت تحب "ياسين" كثيراً، وكانت سنداً له في حياته. وكانت تفضّل الاستقرار وإنجاب الأطفال من "ياسين". ويبدو أن هذا الأخير لم يكن يرغب في ذلك، لذلك فضّلت "ماريان" الطلاق.

ب/الفتاة "باولا": هي فتاة ألمانية من مدينة "برلين" تعرّف عليها "ياسين" في مطعم صغير في (ساحة فاطمة). تحب تونس كثيراً، فقد زارتها أكثر من مرة، كما زارت لبنان وسوريا ومصر، مما جعلها تعشق بلاد الشرق، خاصة بعد قراءتها لألف ليلة وليلة:

(باولا تحاور ياسين):

"- أنت عربي؟

- نعم..

- ومن أي بلد؟

- من تونس.

- أوه... إنه بلد جميل جداً... لقد زرته أكثر من مرة... وقبل عامين أمضيت أسبوعين في الواحات... كان ذلك شبيهاً بحلم رومانسي...

ثم عرف أنها تُدعى "باولا"، وأنها من برلين. ومنذ صباها عشقت بلاد الشرق. وقد ازداد هذا العشق التهاباً بعد أن قرأت "ألف ليلة وليلة" وهي على عتبات المراهقة "المصباحي، ح، 2009: 25-26). فنظرة "باولا" إلى

تونس وكافة بلاد الشرق هي نظرة إعجاب واحترام للحضارة العربية لما وصلت إليه. ومن شدة إعجابها تمت تعلم اللغة العربية، لكن وجدتها صعبة عليها.

ج/الفتاة "كريستا": هي فتاة ألمانية من مدينة ميونيخ، صحفية، تعرّف عليها "ياسين" في معهد العالم العربي بباريس، حينما شارك في ندوة أدبية. فهذه الفتاة لها اهتمام كبير بالعرب عموماً وثقافتهم، فقد كتبت مقالات عديدة عن روائيين، أمثال: نجيب محفوظ، والطيب صالح، وأدونيس، ومحمود درويش، وإميل حبيبي...
"ومرة قالت له باسمه: "مشاكل العرب كثيرة ومعقدة...ولكني أحبهم!" (المصباحي، ح، 2009: 37).

فمن خلال هذه النماذج الغربية لفتيات تعرّف عليهن البطل "ياسين"، ندرك أنهن معجبات بالبلدان الشرقية، بوصفها أرض الحضارة وأرض الثقافة والعادات والتقاليد المتحدرة في أعماق المجتمعات العربية. ومن ثم، نفهم أن المؤلف أراد أن يكشف العلاقة الموجودة بين الأنا والآخر، ويوضح تفاصيلها، وهي في مجملها علاقة تقارب وإعجاب وانبهار، من الأنا إلى الآخر ومن الآخر إلى الأنا.

5/ صورة الغرب في مرآة الأنا:

بدا الغرب في رواية حسونة المصباحي (رماد الحياة) العالم السحري الذي يحلم به أي مواطن عربي مهما كانت جنسيته. فهو يريد الهروب من أوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التعسة، سواء للتنفيس عن نفسه من كرب وخيبات هذه الأوضاع، أو من أجل الاستقرار النهائي، وبداية صفحة جديدة في فضاءات العالم الجديد (العالم الغربي).

وهذه الرواية تعج بالشخصيات التونسية التي قرّرت في لحظات ضعف وانكسار وأسى واضطهاد، السفر إلى بلاد الغرب، هاربة من وضعها الصعب والمتأزم، المليء بالمؤامرات والاضطهاد والقهر على غرار: "ياسين" و"مروان" و"يوسف" و"سليم" و"عمران". فهذه الشخصيات وإن كانت تختلف فيما بينها بحسب أفكارها وتوجهاتها ومستوياتها وأهوائها، لكنها تتفق في نقطة واحدة، وهي أن أوروبا هي المكان الوحيد القادر على تحقيق طموحاتهم ورغباتهم وأفكارهم.

ف"ياسين" الشخصية البطلة في الرواية هاجرت إلى ألمانيا بدافع الهروب من وضع بائس متأزم جداً، لم يكن يتيح البقاء له فيه وتحقيق رغباته وأفكاره، خاصة في المجال الإبداعي (باعتباره كاتباً صحفياً وروائياً)، نظراً للمضايقات والمتابعات والخيبات والانكسارات التي تلقاها. فقرّر السفر إلى ألمانيا والاستقرار بها. لكون أن هذا

البلد هو العالم الحقيقي الذي كان يحلم به، بوصفه العالم الذي يحقق له السعادة والراحة والاستقرار، ويساعده على الكتابة والإبداع. يقول السارد:

"منذ البداية، أحبّ ميونيخ كما لم يحب مدينة أخرى من المدن التي مرّ بها حتى ذلك الوقت. هدوؤها الذي يشبه هدوء القرى الحاملة وسط الطبيعة الزاهية نقره من الهولة المحمومة في باريس وروما ولندن ومدريد، وأعادته إلى طفولته في الفضاءات المفتوحة حيث كان يحسّ أن كلّ ما حوله من جبال وهضاب وحقول وأودية جزء من جسده، ومن روحه. ومتجولاً في "الحديقة الانجليزية" في ضوء الخريف الذي كان يتهاوى على الأرض ذواياً ومتعباً، شعر أنه يعيش عواطف الرومانسيين التي يمتزج فيها الحزن العميق بالإشراق الروحي. وكان يستهويه السير في الشوارع الفارغة أيام الأحاد، وشرب كأس من البيرة في البارات المعتمة حيث يتعانق العشاق،...

في لحظة ما، وهو جالس على مقعد في "الحديقة الانجليزية"، بينما كانت ألوان الأصيل تعيد تشكيل الطبيعة أمامه، محوّلة إياها على حلم بديع من أحلام اليقظة، قال: "هذه هي المدينة التي طالما حلمت بالعيش فيها!" (المصباحي، ح، 2009: 37-38).

فمن الهولة الأولى وجد "ياسين" نفسه مرتاحاً في المدن الأوروبية التي كان يزورها، خاصة "ميونيخ" التي استقر بها وتزوج فتاة من فتياتها. فكان منشرحاً، سعيداً، راضياً بوضعه الجديد. يشرب الخمر، يقيم علاقات مع فتيات في الحانات، يستمع إلى الموسيقى، يسهر إلى آخر الليل مع أصدقائه. إنه باختصار وجد في الغرب الصورة التي طالما حلم بها، والتي أخرجته من كربته وأزمته التي كان يعيشها في وطنه. يقول السارد:

"وكانت سعادته هذه تزداد اتساعاً وتألّفاً حين تبين له أنه أصبح ينعم بالحرية التي طالما حرم منها وهو هناك في وطنه. نعم هو الآن حر. حر أن يشرب بيرة على رصيف شارع فارغ في يوم مشمس. حر أن يحتضن فتاة، وأن يقبل شفيتها الحارتين في ساحة تعجّ بالناس. حر أن يجلس في مقهى صغير ليكتب رسائل إلى أصدقائه البعيدين، أو ليقراً كتاباً مستمتعاً بالنظر من حين إلى آخر إلى قطرات المطر المنسابة على بلور المنافذ. حر أن يتمدد على مقعده في حديقة عمومية. ثم يغمض عينيه ويطلق العنان لأفكاره وأحلامه. في بلاده كان محروماً من كلّ هذه المتع الصغيرة البسيطة وكلّما رغب في الاستمتاع بما يهواه وتميل إليه نفسه، إلّا وتصدّى له مخبرون، أو رجال شرطة، أو حراس أخلاق، وهم الأغلبية الساحقة من الناس" (المصباحي، ح، 2009: 35-36).

ومن ثم، نجد أن "ياسين" لم يكن يحمل حقداً للغرب، أو نظرة سلبية عنه، بل كان معجباً به، وهذا شأن معظم أصدقائه الذين جاؤوا إلى أوروبا حاملين بحياة سعيدة وهنيئة وكريمة. حياة تحقّق طموحات أصحابها الذين ناضلوا

من أجلها، لكنهم في النهاية قرروا العودة إلى بلدهم، والانعزال والانطواء على ذواتهم بسبب عدم مجراتهم حياة الغرب.

فهذا "سليم" الفتى الثوري الطموح الذي كان يناضل في فرنسا من أجل الدعوة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في بلده، ليقوم بالدعوة إلى التظاهرات العمالية في باريس من أجل تصحيح الأوضاع، وتغيير ظروف المجتمع القاهرة، لكنه في النهاية استسلم وعاد خائباً إلى بلده، متخذاً من بيته عالمه الداخلي الذي لا يغادره، تاركاً كل الأفكار التي كان ينادي بها جانباً. عندما زاره "ياسين" في بيته، قال له:

"اسمع يا صديقي... أنا مثلك ذهبت إلى الغرب واهماً حالمًا، معتقداً أن كل شيء ممكن التحقيق... وكان عليّ أن أعيش هناك ربع قرن لكي أكتشف أنني كنت على خطأ، وأن كل ما فعلته في بارات "الحي اللاتيني" كان قبض ربح. لهذا حزمت حقائبي وعدت لأعيش متوحداً بنفسي أمام الصحراء... ولا أعتقد أنني العربي الوحيد الذي فشل... تذكر بطل رواية طه حسين "أديب" الذي انتهى مجنوناً، وهو الذي كان يعتقد أنه أصبح في مأمن من كل المخاطر بعد أن أصبح ملماً بروح الثقافة الغربية... وأما مصطفى سعيد، بطل الطيب صالح في "موسم الهجرة إلى الشمال" فقد ظلّ في النيل طالباً النجدة، عاجزاً عن بلوغ أي من الضفتين... وثمة من عاد إلى قريته البائسة وهو يهذي لينخرط في القطيع من جديد... وأعرف البعض من الذين كانوا مثلي يعتقدون أن الثورة العالمية على وشك الاشتعال، رجعوا محبطين إلى بلدانهم التي تحكم بالحديد والنار، ليمجدوا روحانيات الشرق" (المصباحي، ح، 2009: 107-108).

ندرك من خلال هذا المقطع السردي أن المؤلف يرصد كل الأبطال الذين هاجروا إلى الغرب وعادوا خائبين ومنكسرين، بعدما فشلوا في غريبتهم وسفرهم إلى بلاد الآخر. ومن ثم، فهو يرصد معظم هؤلاء الأبطال الذين تعلّقوا بالغرب وسافروا إليه، لكنهم عادوا خائبين إلى أوطانهم، معبرين عن فشلهم في الارتقاء في أحضان الغرب. وهي دلالة واضحة إلى الإشكالية الجوهرية التي لطالما بقيت مثيرة للتساؤل والنقاش، وهي علاقة الأنا بالآخر أو الشرق بالغرب.

خاتمة:

تعتبر (رماد الحياة) رواية الأتمودج لقضية المنفى التي يختارها الأديب طواعياً، هروباً من أوضاعه وظروفه الاجتماعية التي أصبحت لا تطاق. فرغم أن هذه الرواية ليست سيرة ذاتية للكاتب بالمعنى الأجناسي، إلا أن بطلها "ياسين" يتماهى مع المؤلف حسونة المصباحي. فالرواية تتخذ من تجربته إطاراً لأحداث الرواية وشخصياتها وأفكارها. ومن ثم، كانت هذه الرواية تجربة سردية في سرد علاقة الأنا بالآخر من خلال رحلتها إليه، متخذة من فضائه منفي اختيارياً لجبر انكسارات وخيبات الذات في موقفها من الحياة.

وما يمكن قوله عن رواية (رماد الحياة) إنها رواية مأسوية - إن جاز التعبير - بالنسبة لبطلها "ياسين" الذي اضطر إلى الهجرة إلى الغرب، لكنه لم يستطع التأقلم معه والعيش في فضائه، نظراً لاعتبارات عديدة، أهمها مشكلة اللغة التي تمثل بالنسبة إليه هوية من الهويات الجوهرية في حياة أي إنسان لا يمكن التفریط فيها، خاصة وأنه كاتب صحافي وروائي، فقد كان ضائعاً وتائها بسبب هذا المشكل الذي شكّل له هاجساً، جعله في النهاية يعود إلى وطنه بعد أن تغيّرت الظروف والأحوال، على المستوى السياسي والاجتماعي.

فالرواية ترصد أزمة المثقف العربي في بلاد الآخر، الذي يقف حائراً بين أناة العربية، الحاملة لخصوصيات هويته العربية الإسلامية بكل ملامحها اللغوية والفكرية والدينية، وبين عالم الآخر المتشعب بمحضارة غربية تتميز بخصوصيات تطبعها المظاهر المادية الغارقة في التفسخ والانحلال الخلقي والتحرر... لذلك وجد نفسه في موقف إشكالي يواجه هذه العلاقة المتناقضة. فكان عليه في النهاية أن يختار الموقف الصحيح، فاختر العودة إلى وطنه.

قائمة المصادر والمراجع:

1. آيت ميهوب، محمد (2016): الرواية السيرداتية في الأدب العربي المعاصر، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، ط01.
2. الباردي، محمد (2011): الحداثة وما بعدها في الرواية العربية، مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع، قابس (تونس)، ط01.
3. جبيل، ساسي (2016): في مملكة السرد (حوارات مع مجموعة من الكتاب: أحلام مستغانمي، باولو كويهلو، محمد علي اليوسفي، إدوار الحزاط، أحمد إبراهيم الفقيه، حسونة المصباحي، واسيني الأعرج، نبيل سليمان، فوزي الزمرلي، صلاح الدين بوجاه)، منشورات دار القلم للنشر والتوزيع، صفاقس (تونس)، ط01.
4. الحجري، إبراهيم (2014): الرواية العربية الجديدة (السرد وتشكّل القيم)، منشورات النايا للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط01.
5. الزمرلي، فوزي (2011): فصول في الرواية التونسية، مركز النشر الجامعي، تونس.
6. حمداوي، جميل (2013): دراسات في النقد الروائي بين النظرية والتطبيق، منشورات المعارف، الرباط (المغرب).

7. مُنيف، عبد الرحمن(2007): الكاتب والمنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (لبنان)/ المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع(المغرب)، ط04.
8. المصباحي، حسونة(2017): الكتابة بين الوطن والمنفى، مداخلة قدّمها الكاتب في ندوة حول (الأدب والمجرة) بمدينة وجدة(المغرب) في الدورة الأولى لمعرض الكتاب التي نُظمت بين 21 و24 ديسمبر.
9. المصباحي، حسونة(2009): رماد الحياة، منشورات وليدوف، تونس، ط01.
10. المصباحي، حسونة(2006): لغة المنفى ومنفى اللغة، مقال ضمن الندوة العلمية الموسومة ب:الرواية العربية في نهاية القرن، أيام25-26-27 سبتمبر2003، منشورات وزارة الثقافة المغرب.
11. ماجدولين، شرف الدين(2012):الفتنة والآخر أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون(لبنان)/دار الأمان(المغرب)/منشورات الاختلاف(الجزائر)، ط01.
12. المديني، أحمد(2012): تحولات النوع في الرواية العربية بين مشرق ومغرب، منشورات دار الأمان، الرباط(المغرب)، ط01.
13. صدوق نور الدين(2006): انجلاء الأوهام في الرواية المغاربية، مقال ضمن كتاب جماعي: الأدب المغاربي اليوم: مجموعة من الباحثين ، منشورات اتحاد كتاب المغرب.
14. عثمان، أمين(2012): فصول في الرواية المغاربية، منشورات الدار التونسية.
15. الغامدي، صالح معيض(2013): كتابة الذات دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء(المغرب)، ط01.
16. شريّط، سنوسي(2017): الكتابة عن الذات من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي (قراءات في نماذج مغاربية)، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس(المغرب)، ط01.